شرح القواعد الأربع

لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب

رحمه الله

شرح فضيلة الشيخ:

عبد الله الغديان -رحمه الله-

مع ترجمة للإمام محمد بن عبد الوهاب

للشيخ صالح الفوزان

حفظه الله

اعتنى بهذه المادة

نجيب الجزائري

شبكة الإمام الآجري

شرح القواعد الأربع
لشيخ الإسلام
محمد بن عبد الوهاب
-رحمه الله-

شرح فضيلة الشيخ
عبد الله الغديان
-رحمه الله-

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حياة الإمام محمد بن عبد الوهاب

لمعالي الشيخ

صالح بن فوزان الفوزان

عضو هيئة كبار العلماء وعضو اللجنة الدائمة للإفتاء

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين أما بعد:

فإن نبيّنا محمد صلّى الله عليه وسلّم قد أكمل الله به الدين وأتمّ به النعمة وترك أمّته على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، وحثّ صلّى الله عليه وسلّم بالتمسك بما جاء به صلّى الله عليه وسلّم من الكتاب والسنّة ولزوم جماعة المسلمين في كلّ وقت لاسيما عند اشتداد الفتن وظهور البدع والمحدثات والشركيات في الدين. وقد بشّر صلّى الله عليه وسلّم أنّ الله يبعث على رأس كل مئة سنة من يجدّد لها دينها، وذلك أنه كلّما تطاول الزمان بعد الرسول صلّى الله عليه وسلّم تراكمت البدع والمحدثات التي يروّجها أعداء الدين أو يروّجها الجهّال من المسلمين ويظنّونها من الدّين ومع أنّه صلّى الله عليه وسلّم حذّر من المحدثات وأمر بلزوم السنّة وإتباع الكتاب والسنّة ولكن كما ذكرنا مع تطاول الزمن يحدث التغيير في الدين من شياطين الإنس والجنّ أو من الجهّال الذين لا يعرفون البدعة من السنة ويظنون أن كلّ ما يفعله النّاس الذين يتسمون بالإسلام أنّه من الإسلام.

ومن رحمة الله عز وجل أنّه يبعث في كل قرن من يجدّد هذا الدين يزيل عنه ما علق به ممّا ليس منه وما لبّسه الجهّال أو لبّسه أهل الضلال بهذا الدين، فالله يقيّض من علماء الأمة من يقوم بتجديد هذا الدين وإزاحة ما نُسب إليه وعلق به من البدع والمحدثات، وهذا من رحمة الله بعباده حتى تبقى الحُجة باقية إلى أن تقوم الساعة ولأجل أن يبقى هذا الدين إلى آخر الزمان، فإن الله جلّ وعلا تكفل بحفظه فقال سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾[الحِجر:٩] فالله تكفل بحفظ هذا الدين إلى الأجل الذي يعلمه سبحانه وتعالى في آخر الزمان، لأنه دينٌ للبشرية جميعا ودين باق لا يُنسخ ولا يُبدل ولا يُغير إلى الأجل الذي قدره الله سبحانه وتعالى، فكان لابد أن يبقى هذا الدين بأصالته ونصوعه نقيا ليحتجّ به مَن يريد الهداية، وتقوم به الحجج على الخلق. وقد ظهر مصداق ما أخبر به صلى الله عليه وسلم من ظهور المجدّدين في كل فترة.

فالتجديد في الدين ليس معناه أن الإنسان يُضيف شيئا ما جديداً أو يُحدث فيه ما ليس منه، وإنما التجديد في الدين هو بيان الدين الصحيح وبيان البدع والمحدثات وعزلها عن هذا الدين حتى يبقى هذا الدين نقياً كما تركه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لأمته. ومن هؤلاء المجددين الإمام الذي نحن بصدد الكلام عنه: الإمام المجدد الشيخ **محمد بن عبد الوهاب** رحمه الله، فإن هذا العالم نَشَأَ كغيره مع أسرته وأهله في بلاد *نجد*، وكانت البلد التي وُلد فيها بلدةً عامرةً بالعلماء في الفقه الحنبلي، أما أمور العقيدة فإنهم يمشون على ما عليه الناس في وقتهم دون بصيرة بما هو صحيح وما ليس بصحيح، فإن عنايتهم كانت بالفقه وأما العقيدة فإنهم يمشون على عقيدة الأمصار الأخرى من أشاعرة وغيرهم، وحتى القبورية والصوفية التي كانت تروج في بلاد نجد كغيرها من البلدان.

مولده

ولد هذا الإمام في بلده ونشأ في بيت علم، وكان أبوه قاضيا وكان جدّه: الشيخ سليمان بن علي المفتي العام في *نجد*. وكان البلد أيضا يمتلأ بالعلماء لكن كما ذكرنا عنايتهم هي في تحرير المذهب وتحرير الفقه، وأما العقيدة فإنها باقية على ما كانت وما اعتراها من الرواكد والبدع والمحدثات، لم يقم أحد بتنقيتها وكأن الله ادّخر ذلك لهذا العالم الجليل.

رحلته لطلب العلم

فتعلّم على والده وعلى علماء بلده، ثمّ إنّه لما سمت همّته ولمّا استوعب العلم الذي في بلده أراد أن يتزوّد أكثر منه فذهب إلى *مكة والمدينة* والتقى بعلمائها وأخذ منهم الإجازات في الحديث وفي غيره، وإن كان ذلك في مدة قصيرة لكنها مباركة. ثم ذهب بعد ذلك إلى بلاد *الأحساء*، وكان فيها علماء من مختلف المذاهب الأربعة ولاسيما المذهب الحنبلي فجلس فيها فترة وتعلم على علمائها في الفقه والحديث والتفسير، وكان في كل أحواله في بلاد نجد وفي الحجاز وفي بلاد الأحساء كان معنيا بمطالعة الكتب، ولاسيما كتب شيخ الإسلام *ابن تيمية* وتلميذه *ابن القيّم* رحمهما الله، وكان معنيا بنسخ الكتب بقلمه كلما وجد مؤلَّفا لأحد الشيخين قام بنسخه وتملكه حتى توفرت عنده مكتبة ضخمة من المخطوطات بقلمه رحمه الله.

ثم إنه سمت همته إلى أن يذهب إلى *العراق* وكان (...) بالعلماء في ذلك الوقت، فذهب إلى *العراق* للأخذ من علمائها. وذهب إلى *البصرة* وكانت عامرة بالعلماء فأخذ عن علمائها في الفقه والحديث والتفسير واللغة العربية، تبحّر في العلوم وكان قد بدأ يؤلف الرسائل وهو *بالبصرة*، ويُحكى أنه ألّف كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد وهو في *العراق*.

ثم إنه أراد المزيد من العلم فهمّ أن يذهب إلى *الشام* لتلقي العلم عن علمائها ولاسيما الحنابلة، فإن فيها أئمة كبارا في المذهب الحنبلي، فهمّ بالذهاب ولكن لبعد المسافة ومشقة السفر وهو ليس معه وسيلة نقل إلا قدميه، فإنه خرج يُريد السفر إلى *الشام* لعله يجد من القوافل أو من المسافرين من يصحبهم لكنه لم يجد، فأدركه العطش وكاد أن يموت من العطش والجوع، فيسّر الله له رجلا معه دابة يحمل عليها الماء وبعض الأغذية فأنقذ الشيخ رحمه الله فسقاه وأطعمه ورجع به إلى *البصرة*.

عودته إلى نجد

ثم إنّه بعد ذلك عاد إلى *نجد* متولّعاً بالعلم في ذاكرته وفي كتبه، فعاد مؤهّلا ومسلّحا بالعلم النافع في الأصول والفروع. فباشر الدعوة في أول أمره في بلده *عُيينة*، ثم إنّه لم يطب له مقام فيها لأنه لم يجد فيها من يساعده على ما يريد، إلا أنه تأثّر به من أهل *عُيينة* من تأثّر وانتفع به من انتفع، وفي النهاية طلب منه أمير *عُيينة* المغادرة فتوجه إلى بلد الدرعية وهي قريبة من *العُيينة*، ذهب إليها لعله يجد من يُناصره وهذا إقتداءً بالنبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فإن الداعية الذي يدعو إلى الله لابد له من سلطة تؤازره وتُعينه، أما أن يدعو بدون أن يكون معه سلطان يساعده أو يُنفذ ما يدعو إليه فالدعوة بدون سلطان تكون ناقصة ونفعها قليل. فلذلك اقتدى بالنبي صلى الله عليه وسلم، فإنّ النبي صلى الله عليه وسلم كان يعرض نفسه على القبائل في موسم الحج يلتمس من يساعده على تبليغ الدعوة ويؤازره ويحميه من أذى قومه، ثم إن الله قيّض له صلّى الله عليه وسلّم الأنصار الذين جاؤوا إلى الحج فقرأ عليهم القرآن فدخل إلى قلوبهم وتقبّلوه وبايعوه على الإسلام وعلى أن يُهاجر إليهم ويُناصروه ويؤازروه، وقد صدقوا ما عاهدوا الله عليه -رضي الله عنهم وأرضاهم- هم وإخوانهم المهاجرون الذين هاجروا من مكة مع النبي صلى الله عليه وسلم تآزروا في نصرة

النبي صلى الله عليه وسلم فوجد بذلك سلطانا قويا يركن إليه. والشيخ رحمه الله اقتدى بالنبي صلى الله عليه وسلم في ذلك فطلب من الأمراء أن يساعدوه فانتهى به الأمر إلى الأمير ***محمد بن سعود***.

لقاء الشيخ بالأمير محمد بن سعود

فدخل الإيمان في قلبه[1] واستجاب لدعوة الشيخ فبايعه على كتاب الله وعلى سنة رسوله وعلى النصرة والجهاد في سبيل الله فتمت البيعة،ووجد عند هذا الأمير النصرة والقوة فسكن في *الدرعية* وفي خلال إقامته في *الدرعية* واصل الدعوة إلى الله على طمأنينة لأنه الآن استقر ووجد المأوى ووجد الأنصار ووجد السلطة التي تؤازره فنشط في الدعوة وكان يعمل في مجالات :

- يعمل في كتابة الرسائل إلى البلدان يدعوهم إلى الله سبحانه وتعالى،
- ويعمل في مجال التدريس فكان له طلاب يلازمونه ويلقي عليهم الدروس،
- وكان أيضا يشتغل في تأليف الكتب الكبيرة
- وكان يخطب الجمعة والأعياد

فيتولى الخطابة والإمامة ويتولى التدريس ويتولى الإفتاء والقضاء أيضا فقام بالمهام كما كان النبي صلى الله عليه وسلم بكل المهام هو له قدوة، إلى أن انتشرت دعوته في بلاد *نجد* وانتشرت خارج بلاد *نجد* وعمّت غالب الجزيرة ودخلت تحت حكم *آل سعود* وكان العالم الذي يرجعون إليه هو الشيخ *محمد بن عبد الوهاب* والإمام الذي يرجعون إليه في السلطة هو الإمام *محمد بن سعود*.

[1] يعني في قلب بالأمير محمد بن سعود

انتشار دعوة الشيخ

امتدت دعوته من الشام إلى اليمن إلى الحجاز إلى الخليج العربي، وقد امتدت إلى خارج الجزيرة وتسامع بها الناس الذين يريدون الحق وقبلوها وآزروها وأيدوها وصاروا يدعون إلى الله على غرار ما في بلدانهم ولذلك انتشرت الدعوة بانتشار التعليم وبانتشار الكتب النافعة في إنكار البدع.

إنجازات الشيخ

ومن أهم ما قام به رحمه الله: أنه أزال مظاهر الشرك من بلاد نجد؛فهدم القباب المبنية على القبور وقطع الأشجار التي تعبد من دون الله وردّ على شبهات الذين يروجون لهذه الخرافات،حتى انتصرت الدعوة وقرت عين الشيخ رحمه الله بانتشار دعوته على امتداد الجزيرة وعمّره الله عمراً طويلا إلى أن وافاه الأجل في سنة ١٢٠٦هـ توفاه الله قرير العين وقد انتشرت الدعوة وقام أبناؤه وتلاميذه من بعده واطمأن على أنهم سيقومون بذلك وأوصاهم بذلك وحثهم على الاستمرار فقاموا بالدعوة من بعده ولا يزال هذا مستمرا إلى وقتنا هذا ولله الحمد.

استمرار انتشار دعوة الشيخ بعد وفاته

وهذه الدعوة تنتشر وتستضيء والدعاة إلى الله ينهلون منها ويبلّغونها للنّاس لأنها منهج سليم وخط مستقيم لا اعوجاج فيه على دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم، وبهذا استقرت الدعوة في بلاد *نجد* وامتدت إلى الأقطار وإلى خارج الجزيرة ولا تزال ولله الحمد، وهذا من فضل الله علينا وعلى الناس ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ٦١ ﴾[غافر:٦١].

نسأل الله أن يغفر لشيخنا: الشيخ الإمام *محمد بن عبد الوهاب* وأن يجزيه عن الأمة خير الجزاء وأن تستمر هذه الدعوة وهذا النفع ليستمر بذلك ثوابه له كما قال صلى الله عليه وسلم " إِذَا

مَاتَ اِبْن آدَم اِنْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاث صَدَقَةٍ جَارِيَة أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَع بِهِ أَوْ وَلَدٍ صَالِح يَدْعُو لَهُ"[2]

فهذا من رحمة الله عزّ وجلّ أن هذا الدين وهذه الدعوة وهذا التوحيد انتشر ولا يزال ينتشر بسبب هذه الدعوة المباركة التي كتب الله لها البقاء. وهكذا الدعوة الصحيحة، كم الآن من الدعاة ومن المؤسّسات ومنْ ومِنْ ولكن أين النفع الذي يوازي دعوة رجل واحد مثل الشيخ *محمد بن عبد الوهاب*، فالمسألة ليست مسألة الكثرة وإنما المسألة مسألة الإخلاص لله وأن تكون الدعوة على بصيرة وعلى هدى من الله قال الله عز وجل ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ ﴿١٧﴾﴾[الرعد:١٧].

نسأل الله عزّ وجلّ أن يجزي شيخنا خير الجزاء وأن يثبتنا وإيّاكم وجميع المسلمين على الحق وأن نكون من الدعاة إليه على بصيرة وصلّى الله وسلّم على نبيّنا محمّد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

---

[2] أخرجه مسلم (٥/٧٣) و كذا البخاري في " الأدب المفرد " (٣٨) و أبو داود (٢٨٨٠) و النسائي (٢/١٢٩) و الترمذي (١/٣٥٩) و الطحاوي في " مشكل الآثار " (١/٩٥) و البيهقي (٦/٢٧٨) و أحمد (٢/٣٧٢) من طرق عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة.

شرح القواعد الأربع

للشيخ عبد الله الغديان رحمه الله

مقدمة شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب

قال المؤلف رحمه الله تعالى:

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَسْأَلُ اللهَ الْكَرِيمَ رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ أَنْ يَتَوَلاكَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ. وَأَنْ يَجْعَلَكَ مُبَارَكًا أَيْنَمَا كُنْتَ، وَأَنْ يَجْعَلَكَ مِمَّنْ إِذَا أُعْطِيَ شَكَرَ، وَإِذَا ابْتُلِيَ صَبَرَ، وَإِذَا أَذْنَبَ اسْتَغْفَرَ. فَإِنَّ هَؤُلاءِ الثَّلاثُ عُنْوَانُ السَّعَادَةِ

الشرح

الشيخ رحمه الله يخاطب بهذا الكلام كل مكلّف، فكأنّها رسالة منه إلى جميع المكلّفين. ومن حكمته رحمه الله أن استهلّ هذه الوصية بأنواع التوحيد الثلاثة:

- أما توحيد الألوهية ففي قوله " أَسْأَلُ اللهَ "
- وأما توحيد الأسماء والصفات في قوله " الْكَرِيمَ ".
- وأما توحيد الربوبية ففي قوله " رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ".

وهذا يسميه العلماء **براعة الاستهلال** بمعنى أن الشخص عندما يريد أن يتكلّم عن موضوع فإنّه يفتتحه بكلمات تدلّ على هذا الموضوع الذي يريد أن يتكلّم عنه.

ثمّ إنّه رحمه الله بيّن في هذه الوصية ثلاثة أمور:

١- قوله: " أَنْ يَتَوَلاكَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ " وهذا يدلّ على أنّه يدعو لهذا المكلّف بأنّ الله جلّ وعلا يتولّى أمره في الدنيا ويتولّى أمره في الآخرة. وهذه الدعوة جاءت في القرآن وجاءت في الحديث، فأما في القرآن ففي قوله جلّ وعلا ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ ﴿٣٠﴾﴾[فُصِّلَت:٣٠] وقال جلّ وعلا ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴿٢٥٧﴾﴾[البقرة:٢٥٧] وفي الحديث يقول الرسول صلّى الله عليه وسلّم "اِحْفَظْ اللَّه يَحْفَظْك"[3] ومن تولّاه الله في دنياه وتولّاه الله في آخرته فإنه لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. ولكن هذا التولّي في الدنيا وفي الآخرة يحتاج إلى أن العبد يعمل الأسباب التي تكون أسباب في تولّي الله لهذا العبد في أمور دنياه وكذلك في أمور دينه، وفي آخرته، وهذا الأسباب يجمعها امتثال أوامر الله جلّ وعلا، ويكون هذا الامتثال مصحوبا بقصد الامتثال لأن كل عمل يعمله الإنسان له ركنان:

- المتابعة
- قصد الامتثال: أي أن يقصد بعمله هذا وجه الله جلّ علا.

فكل عمل وُجد فيه هذان الركنان فإنه يكون سببا في تولّي الله للعبد، وإذا فُقدا معاً أو فُقد أحدهما فإنّ الله سبحانه وتعالى يتخلّى عن العبد. فلابدّ أن يعمل المكلف هذه الأسباب: يمتثل أمر الله ويجتنب نهيه حتى يكون الله وليه كما قال جلّ وعلا ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴿٢٥٧﴾﴾[البقرة:٢٥٧].

٢- قال الشيخ رحمه الله: " وَأَنْ يَجْعَلَكَ مُبَارَكًا أَيْنَمَا كُنْتَ " هذه الدعوة لهذا الشخص.

---

[3] (**صحيح**) انظر حديث رقم: **٧٩٥٧** في صحيح الجامع.

والبركة تكون من الشخص في قوله، وتكون في عمله، وتكون في ماله، فيكون الشخص مباركا في أمره، ويكون مباركا في تفهمه، ويكون مباركا في علمه يعني من جهة التعلم وفيه العمل وفيه الدعوة إلى الله جلّ وعلا. وكلمة "أَيْنَمَا كُنْتَ" هذا بالنظر إلى اختلاف الأمكنة لكن كما سبق في الوصيّة الأولى أنه لابدّ أن يكون عالما بما يأمره به، حكيما فيما يأمر به، عاملا بما يأمر به. ويكون عالما بما ينهى عنه، وعاملا بما ينهى عنه، وكذلك يكون حكيما فيما ينهى عنه لا يُريد بذلك إلا وجه الله جل وعلا.

٣- قال الشيخ رحمه الله: " وَأَنْ يَجْعَلَكَ مِمَّنْ إِذَا أُعْطِيَ شَكَرَ " هذه الجملة فيها العلاقة بين العبد بين الله جل وعلا من جهة أن الأسباب التي تأتي من الله جل وعلا للعبد هي نِعم سواء كانت هذه النعم في الدين، أو كانت في العقل، أو كانت في البدن، أو أيّ نعمة أنعم الله بها على العبد، فإن هذه النعمة تستحقّ الشكر من العبد لله جلّ وعلا. وذلك أن الناس في هذا المقام أربعة أصناف:

- **الصنف الأول**: من يستعمل نِعم الله جلّ وعلا عليه في معاصيه ولا يشكر نعمة الله جلّ وعلا، وهذا هو شأن الكفار لأن الله أنعم عليهم بكثير من النعم ولكنهم كفروا هذه النعم.
- **الصنف الثاني**: من إذا أنعم اللهُ عليه فإنّه يقابل هذه النعمة بالشكر، والشكر من العبد لله جل وعلا تارة يكون في أداء الواجبات مثل ما إذا أنعم الله عليه بالمال فمِنْ شُكر هذه النعمة أنه يؤدي زكاة هذا المال، ويكون فيه أمر مستحب وذلك أن يتصدق من هذا المال وكذلك يؤدي الحقوق المالية الواجبة عليه مثلا لزوجته ولأبنائه وهكذا، فيكون قد شكر نعمة الله في هذا المال. ومن أعطاه الله صحّة فإنه

يستعملها في طاعة الله جل وعلا: صحّة في سمعه، وصحّة في بصره، وصحة في لسانه، وصحة أيضا في قلبه وفي سائر بدنه. فمِنْ شُكر الله بالنظر إلى السمع: يسمع ما يؤجر عليه، والشكر بالنظر للبصر يستعمل بصره في النظر وقراءة ما يُثاب عليه، وهكذا بالنظر إلى سائر جسده وهكذا بالنسبة أيضا للفرج فإنه يستعمله في النكاح الذي شرعه الله جل وعلا ولا يستعمله في الزنا أو ما إلى ذلك.

- **الصنف الثالث**: من يعطيه الله جل وعلا النِعم ولكنّه يقصّر في شكره.
- **الصنف الرابع**: من يعطيه الله جلّ وعلا النِعم ولكنه يعتبر أن هذه النِعم ليس له فيها سبب أصلا، كما ذكر الله في القرآن عن قارون ﴿۞إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ ٧٦﴾[القصص:٧٦] إلى آخر القصة، فالمقصود هو أنّ العبد يجب عليه أن يشكر الله على كل نعمة أنعم الله بها عليه.

٤- قال رحمه الله " وَإِذَا ابْتُلِيَ صَبَرَ ": هذه الجملة كالتي قبلها من جهة موقف العبد فيما بينه وبين الله جلّ وعلا من جهة المصائب التي تقع على العبد.

وهذه المصائب منها ما يكون في البدن: فقد يصاب الإنسان بفقد سمعه أو بصره أو لسناه بحيث أنه لا يستطيع النطق أو ينطق ولكن بضعف أو أنه يصاب في سائر بدنه بمعنى أنه يكون مقعدا، وهذا مُشاهد في اختلاف المصائب التي يصاب بها الإنسان. وقد يصاب أيضا بالمرض فالمقصود أنه قد يُبتلى في بدنه في أي وجه من وجوه الابتلاء.

وقد يُبتلى في زوجته ويُبتلى في ولده ويُبتلى أيضا في ماله يقول الله جلّ وعلا ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦﴾[البقرة:١٥٥-١٥٦] وهذا الابتلاء وقع في

السابقين، فقد ابتلى الله إبراهيم في ذبح ولده وابتلى الله نوحا بزوجة كافرة وابتلى الله زوجة فرعون كانت مؤمنة وكان يدعي الربوبية وهكذا.

فالمقصود أن الابتلاء هذا يكون من الله جل وعلا ويكون فيه حسن العاقبة. لكن هذا الابتلاء يحتاج إلى موقف من العبد وهذا الموقف هو الصبر، فيصبر على أقدار الله جلّ علا المؤلمة وقد جاء في الحديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم "إن العبد لتكون له المنزلة في الجنة لا ينالها إلا على بلوى تصيبه"[4] فلابد من وجود الصبر وذلك من أجل حصول الجزاء العظيم من الله وفي مقدمة هذا الجزاء رضا الله عن العبد، فعندنا ثلاثة أمور:

- المصائب
- الصبر عليها من العبد
- والثالث: وهو حصول الجزاء العظيم من الله للعبد، وهذا الجزاء قد يكون دنيويا وأخرويا يعني أن الله يكرم العبد الصابر في الدنيا وفي الآخرة وقد يكون هذا الجزاء في الآخرة والله سبحانه وتعالى حكيم عليم.

٥- قال رحمه الله: " وَإِذَا أَذْنَبَ اسْتَغْفَرَ " هذه الجملة فيها بيان ما يجب على العبد في حال حصول اقتراف ذنب منه، والذنب تارة يكون بترك واجب وتارة يكون بفعل محرم، وجاءت أدلة من القرآن وأدلة من الحديث دالّة على أنه يجب على العبد إذا أذنب أن يستغفر الله؛ يقول الله جلّ وعلا: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ ٣٨﴾[الأنفال:٣٨] فهذه الآية فيها بيان أن الله جلّ وعلا يقبل توبة الكافر من كفره ويقبل توبة المشرك ويقبل توبة المنافق: الكفر الأكبر والشرك الأكبر والنفاق الأكبر، ويقبل توبة ما دون ذلك يعني: الشرك الأصغر والنفاق

---

[4] لم أقف عليه

الأصغر، وكذلك الإصرار على الصغائر كل هذه الأمور داخلة في هذا الأمر. جاء في الحديث القدسي: "يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا فاستغفروني أغفر لكم"[5]

فيتوب العبد من الذنوب ، والتوبة لها شروط :

١- إن كانت من حق الله فلابد فيها من:

- الإقلاع
- الندم
- العزم على أنه لا يعود إلى هذا الذنب.

٢- وإن كانت من حقوق الخلق:

- فإن كان حقا ماليّا فإنه يعيده إلى صاحبه
- وإن كان غير مالي فإنه يطلب منه السماح فإن تعذّر ذلك فإنه يتصدق عنه ويدعو له بقدر ما يغلب على ظنّه أنه مكافئ لما حصل منه من اعتداء.

وهذا بخلاف الذين تحصل منهم غفلة فيرتكبون أمور عظيمة من الكفر والشرك والنفاق وسائر المعاصي ولا يكون عندهم يقظة فيأتيهم الموت وهم على حالة لا ترضي الله جلّ وعلا، وسواء كانت لا ترضي الله بمعنى أن الشخص يموت على الكفر الأكبر أو الشرك الأكبر أو النفاق الأكبر ويكون مخلداً في النار، أو أنه يموت على الشرك الأصغر فيدخله الله النار أو يأخذ من حسناته بقدر شركه، أو أنه يكون مثقلا بحقوق الخلق ويكون مثقلا بالمعاصي فيموت وهو على هذه الحالة، فلابد أن يتنبه الشخص إلى مسألة التوبة فإن لها شأنا عظيما في حياة الإنسان وكذلك في آخرته.

---

[5] (**صحيح**) انظر حديث رقم: **٤٣٤٥** في صحيح الجامع.

ثم قال رحمه الله فَإِنَّ هَؤُلاءِ الثَّلاثُ عُنْوَانُ السَّعَادَةِ: هذا فيه تنبيه وتعقيب على ما سبق أن ذَكَره وهو قوله وَأَنْ يَجْعَلَكَ مِمَّنْ إِذَا أُعْطِيَ شَكَرَ، وَإِذَا ابْتُلِيَ صَبَرَ، وَإِذَا أَذْنَبَ اسْتَغْفَرَ. يقول إذا حصلت لك هذه الأمور يعني شكرت نِعم الله وصبرت على البلاء الذي يأتيك واستغفرت من جميع الذنوب التي تفعلها فإنّ هذا دليل على سعادتك في الدنيا من جهة وفي الآخرة من جهة أخرى.

ثم قال رحمه الله: اعْلَمْ أَرْشَدَكَ اللهُ لِطَاعَتِهِ: أَنَّ الْحَنِيفِيَّةَ مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ: أَنْ تَعْبُدَ اللهَ، وَحْدَهُ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ الذاريات: ٥٦]. فَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ اللهَ خَلَقَكَ لِعِبَادَتِهِ؛ فَاعْلَمْ أَنَّ الْعِبَادَةَ لا تُسَمَّى عِبَادَةً إِلا مَعَ التَّوْحِيدِ، كَمَا أَنَّ الصَّلاةَ لا تُسَمَّى صَلاةً إِلا مَعَ الطَّهَارَةِ، فَإِذَا دَخَلَ الشِّرْكُ فِي الْعِبَادَةِ فَسَدَتْ، كَالْحَدَثِ إِذَا دَخَلَ فِي الطَّهَارَةِ.

الشرح

مقصوده من هذا هو بيان المقام الذي ينبغي أن يقومه العبد في عبادته لله جلّ وعلا، فقال إنّ ملّة إبراهيم تتكون من الإخلاص والمتابعة:

- فالمتابعة: هي عبارة عن امتثال الأمر واجتناب النهي.
- والإخلاص هو أن يعبدَ العبدُ ربَّه يعني يكون في أعماله قاصدا وجه الله جلّ وعلا

ولا يُدخل في هذه العبادة أمور يكون لها تأثير عليها، وذلك أن العبادة من جهة الوُجود لها أربع حالات وكذلك من جهة العدم لها أربع حالات:

فالحالات التي من جهة الوجود:

- المحافظة على الأصل

- المحافظة على كمال الأصل
- المحافظة على كمال الثواب الواجب
- المحافظة على كمال الثواب المستحب.

١- فبالنسبة لكمال الأصل هو أن يأتي بالتوحيد على الوجه الذي يُرضي الله جلّ وعلا سواء كان في توحيد الألوهية أو توحيد الربوبية أو توحيد الأسماء والصفات.

٢- والثاني أن يتجنب ما يُنافي كمال الأصل، يُنافي: يعني يتجنب جميع وسائل الشرك فإذا تجنبها يكون قد حقق كمال الأصل.

٣- ويتجنب أيضا التقصير في شيء من الواجبات.

٤- وهكذا بالنظر للمستحبات مثل نوافل العبادات: نوافل الصلاة، نوافل الصيام، نوافل الصدقة وهكذا، فإن هذه كلها مكملة للثواب المستحب.

لكن هذه أمور أربعة بالنظر له من ناحية الوجود، أما من ناحية العدم:

- فإنه الشخص قد يقع منه الكفر الأكبر أو الشرك الأكبر أو النفاق الأكبر وهذا مناف للأصل.
- وقد يحصل منه الشرك الأصغر وهذا مناف لكمال الأصل.
- وقد يحدث منه شيء من المعاصي مثل شرب الخمر ومثل الزنا وما إلى ذلك وهذا أيضا مناف لكمال الثواب الواجب.
- وقد مثلا يتساهل من ناحية قيامه بالنوافل من ناحية صيام النوافل، من ناحية صلاة التطوع، ومن ناحية حج التطوع، وهكذا سائر التطوّعات هذا ينافي كمال الثواب المستحب.

فلابد أن يكون الإنسان قائما مع الله في هذا التوحيد على الوجه الذي يُرضي الله جلّ وعلا وهذا هو ملّة إبراهيم من جهة وملّة جميع الرسل من جهة ثانية.

قال رحمه الله "فَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ الشِّرْكَ إِذَا خَالَطَ الْعِبَادَةَ أَفْسَدَهَا، وَأَحْبَطَ الْعَمَلَ، وَصَارَ صَاحِبُهُ، مِنَ الْخَالِدِينَ فِي النَّارِ. عَرَفْتَ أَنَّ أَهَمَّ مَا عَلَيْكَ مَعْرِفَةُ ذَلِكَ لَعَلَّ اللهَ أَنْ يُخَلِّصَكَ مِنْ هَذِهِ الشَّبَكَةِ، وَهِيَ الشِّرْكُ بِاللهِ الَّذِي قَالَ اللهُ تَعَالَى فِيهِ :﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ [النساء: ١١٦]. وَذَلِكَ بِمَعْرِفَةِ أَرْبَعِ قَوَاعِدَ ذَكَرَهَا اللهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ.

الشرح

مقصود الشيخ من هذا بيان أن الناس في هذه الحياة منهم من هو مستقيم ظاهراً وباطناً وهم المذكورون في افتتاح سورة البقرة في قوله تعالى ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٥﴾ [البقرة:١-٥] فهذا صنف والصنف الثاني هؤلاء منحرفون عن الصراط المستقيم باطناً وظاهراً وهم الكفار الذين ذكرهم الله جلّ وعلا بعد هذه الآية ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ۝٧﴾[البقرة:٦-٧].

وصنف ثالث: هؤلاء منقادون بجوارحهم ولكن قلوبهم مكذبة وهؤلاء هم المنافقون.

♦ الشيخ رحمه الله يقول أن الإنسان يكون على عمل صالح ولكن يعمل عملا يُفسد هذا العمل الصالح وبيان ذلك أن الشخص عندما يعمل أعمالا صالحة قد يعمل ما يُنافي هذا الأصل، يُنافيه منافاة كاملة كما إذا عمل بالشرك الأكبر بجميع أنواعه أو النفاق الأكبر

بجميع أنواعه أو الكفر الأكبر بجميع أنواعه. فهذا يعمل عملا صالحا ولكنه يخلطه بكفر أكبر أو نفاق أكبر أو شرك أكبر فبناء على ذلك لا يُقبل منه هذا العمل لأنه عمل عملا يُنافي أصل التوحيد.

- **الصنف الثاني** أن يعمل أعمالا صالحة ولكن يأتي بما يُنافي الكمال، هو لا يُنافي الأصل ولكن يُنافي الكمال فقط، والذي يُنافي الكمال هو الشرك الذي دون الشرك الأكبر: وهو الشرك الأصغر، وهذا إذا مات عليه الإنسان فإنّه لا يُغفر فإما يُدخله الله النار أو يُؤخذ من حسناته بقدر شركه لعموم قوله جلّ وعلا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ ٤٨﴾[النساء:٤٨]
- **الصنف الثالث**: أن يعمل أعمالا صالحة ولكنه يرتكب شيئا من كبائر الذنوب مثل الزنا والسرقة وشرب الخمر فهذا يعمل أعمالا صالحة ولكنه يخلطها بالمعاصي سواء كانت المعصية ترك واجب أو كانت المعصية فِعل محرّم فهذه لا تُنافي الأصل ولا تُنافي كمال الأصل ولكنها تُنافي كمال الثواب الواجب. ومن عقيدة أهل السنة والجماعة: **أن يُقال في هذا أنه مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته**، فإذا مات وهو مقيم على هذه المعاصي فهو تحت مشيئة الله إن شاء عفا عنه وإن شاء أدخله النار وطهّره ومآله إلى الجنة.
- **الصنف الرابع**: أن يعمل شيئا من صغائر الذنوب ولكنه يكون مصرّاً عليها بمعنى أنه يموت وهو لم يَتُبْ منها فإذا أصرّ عليها ومات عليها فإنها كالكبيرة لأنّ الإصرار على الصغيرة يحوّلها إلى كبيرة. فبناء على ذلك إذا مات على هذه الصفة فهو تحت مشيئة الله إن شاء عذّبه وإن شاء غفر له.

فهذا الشيء الذي ذكره الشيخ فيه تنبيه على أن الشرك إذا خالط الأعمال الصالحة فإنه يُفسدها كما قال الله جلّ وعلا: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾[الكهف:١١٠] ويقول الله جلّ وعلا في الحديث القدسي "أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاء عَنْ الشِّرْك مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْته وَشِرْكه"[6] وبناء على ذلك فعلى المسلم أن يتنبه للأعمال التي يُزاولها ويحرص بقدر استطاعته أن تكون أقواله وأعماله وكذلك ما يكسبه من المال وما ينفقه من مال يكون ذلك كله موافقا لشرع الله جلّ وعلا وهو بهذه الطريقة يسلمُ.

---

[6] (**صحيح**) أخرجه مسلم (٢٩٨٥)

الْقَاعِدَةُ الأُولَى

أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ الْكُفَّارَ الَّذِينَ قَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللهِ. صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. مُقِرُّونَ بِأَنَّ اللهَ. تَعَالَى. هُوَ الْخَالِقُ، الْمُدَبِّرُ، وَأَنَّ ذَلِكَ لَمْ يُدْخِلَهُمْ فِي الإِسْلامِ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾[يونس:٣١]

الشرح

هذه القاعدة فيها تنبيه من الشيخ رحمه الله للموجودين في وقته وكذلك فيه تنبيه على من تبلغه هذه القاعدة من الناس، سواء كانوا ذكورا أو إناثاً.

فهو رحمه الله يبيّن أن الكفار في قديم الدهر وفي وقته رحمه الله معترفون بتوحيد الربوبية وأن هذا الاعتراف لم ينفعهم لأن الخصومة بين الرسل وبين أممهم -والرسل عددهم ثلاثمائة وبضعة عشر- كلهم النزاع بينهم وبين الأمم هو في توحيد **الألوهية** أما توحيد الربوبية فإنهم مقرّون به ومقرّون أيضا بتوحيد الأسماء والصفات ومقرّون بذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، مقرّون بذلك كلّه ولكن هذا لم يُدخلهم في الإسلام.

فهذا فيه تنبيه على أن الموجودين من الناس في هذا الوقت، إذا أقرّ منهم الشخص بتوحيد الربوبية وتوحيد الذات والأسماء والصفات ولكنه يُشرك مع الله جلّ وعلا في ألوهيته لأن **توحيد الألوهية**: هو توحيد الله بأفعال العباد.

فقد يُشرك مع الله جلّ وعلا غيره:

- يشركه في **المحبّة**: بمعنى أنه يحبّه كما يحبّ الله جلّ وعلا أو أنه يحبّه دون الله جلّ وعلا يعني يحبّ هذا المخلوق ولا يحبّ الله أو يحبّه مثل ما يحبّ الله.

- أو يدعو هذا المخلوق **دعاء عبادة** و**دعاء مسألة** فيما لا يقدر عليه إلا الله كالذين يذهبون إلى أصحاب القبور ويدعونهم من دون الله جلّ وعلا من جهة جلب نفع أو دفع ضرّ.
- وكذلك يُشرك مع الله في **قصده** يعني الأعمال التي يقدمها تكون نيّته مشتركة بين الله وبين خلقه أو أنه يقصد بهذا العمل غير وجه الله جلّ وعلا والمقصود بالقصد الإرادة يعني التعبد. فهذا كله من الشرك.
- وهكذا إذا كان الشخص يطيع مخلوقاً في تحليل ما حرّم الله أو تحريم ما أحلّ الله فهذا أيضا شرك في الطاعة كما قال جلّ وعلا ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴿٣١﴾﴾[التوبة:٣١] قالوا: يا رسول الله لسنا نعبدهم، قال: "أليسوا يحلّون ما حرّم الله فتحلونه ويحرّمون ما أحل الله فتحرّمونه"، قالوا: بلى، قال: "فتلك عبادتهم"[٧].

وبناء على ذلك كله فإن الشخص لابد أن يُفرد الله جلّ وعلا بأفعاله يعني: أفعال العباد. فتوحيد الألوهية هو: توحيد الله جلّ وعلا بأفعال العباد.

ولما بيّن الشيخ رحمه الله أن الإقرار بهذا التوحيد لا ينفع الإنسان ولا يدخله في الإسلام ذكر الدليل الدال على أن الكفار مُقِرّون بهذا التوحيد ولكنه لم يُدخلهم في الإسلام.

وقد اختار الشيخ رحمه الله هذه الآية وهي دالة على إقرارهم بتوحيد الربوبية من ستّة أوجه:

١- **الرزق**: ولهذا قال تعالى قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وجاء في الحديث القدسي: " يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلاَّ مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ

---

[7] حسّنه الشيخ الألباني في غاية المرام ٦ بلفظ: وقد جاء عدي بن حاتم إلى النبي صلى الله عليه وسلم وكان قد دان بالنصرانية قبل الإسلام فلما سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ هذه الآية ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة:٣١] قال: يا رسول الله إنهم لم يعبدوهم فقال: بلى إنهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم. وفي رواية أن النبي عليه السلام قال تفسيرا لهذه الآية: (أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئا استحلوه وإذا حرموا عليهم شيئا حرموه.

عَارٍ إِلاَّ مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ "[8] وجاء في القرآن: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾[الذاريات:٥٨] وجاء قوله تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴿٩٦﴾﴾[الأعراف:٩٦] فالمقصود أن هذا سؤال موجّه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم يقول: اسألهم من يرزقكم من السماء والأرض.

٢- **السمع**: قوله: ﴿أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ﴾ بمعنى أن سَمْعَ بني آدم مُلْك لله جلّ وعلا.

٣- **الأبصار**: قوله ﴿أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ﴾

٤- في قوله: ﴿وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾

٥- في قوله: ﴿وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾

٦- في قوله: ﴿وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾ لأن الله سبحانه وتعالى هو الذي يدبّر الأمر من السماء إلى الأرض فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فهو جلّ وعلا إذا أراد أمرا قال له كُن فيكون.

فلما أمر الرسول صلى الله عليه وسلم أن يسألهم هذه الأسئلة الستّة، بعد ذلك جاء الجواب في الآخر فقال: ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ﴾ يعني إذا كنتم تقرّون بهذه الأمور وأن الله سبحانه وتعالى هو المالك، الآمر، المتصرف فيها، فلماذا لا توحّدونه يقول أأقررتم بتوحيد الربوبية فلماذا لا تقرّون بتوحيد الألوهية، فتتقون الله جلّ وعلا يعني تعملون بأوامره وتجتنبون نواهيه.

---

[8] (**صحيح**) انظر حديث رقم: **٤٣٤٥** في صحيح الجامع.

الْقَاعِدَةُ الثَّانِيَةُ

أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: مَا دَعَوْنَاهُمْ وَتَوَجَّهْنَا إِلَيْهِمْ إِلا لِطَلَبِ الْقُرْبَةِ وَالشَّفَاعَةِ، فَدَلِيلُ الْقُرْبَةِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ۝٣﴾[الزُّمَر:٣]

الشرح

المقصود من هذا الكلام هو أنّ الله سبحانه وتعالى بيّن أنّ المشركين الذين سمّاهم الله وحَكَمَ عليهم بالخلود بالنار لم يُشركوا في ربوبية الله جلّ وعلا وإنّما كان شركهم في توحيد الألوهية فإنهم لا يقولون إنّ آلهتهم التي يعبدونها من دون الله لا يعتقدون أنّها تخلق وترزق مع الله و أنّهم ينفعون أو يضرّون أو يدبّرون مع الله في مُلكه، وإنّما اتخذوهم شفعاء كما قال الله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۝١٨﴾[يونس:١٨]

قوله ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ هذا فيه تنبيه واعتراف منهم على أنّهم لا ينفعون ولا يضرّون وإنما اتخذوهم شفعاء أي: وسطاء عند الله في قضاء حوائجهم، فهم يذبحون لهم وينذرون لهم لا لأنهم يخلقون أو يرزقون أو ينفعون أو يضرون باعتقادهم وإنما لأنهم يتوسطون لهم عند الله جلّ وعلا ويشفعون عند الله جلّ وعلاّ وهذه عقيدة المشركين.

والشفاعة فيها حق وفيها باطل:

والشفاعة التي هي حق وصحيحة هي ما توفّر فيها شرطان:

١- أن تكون بإذن الله جلّ وعلا

٢- أن يكون المشفوع فيه من أهل التوحيد أي من عصاة الموحّدين.

فإن اختلّ شرط من هاذين الشرطين فالشفاعة باطلة.

ثم قال رَحِمَهُ اللهُ: وَدَلِيلُ الشَّفَاعَةِ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللهِ ﴾ [يونس: ١٨].

وَالشَّفَاعَةُ شَفَاعَتَانِ: شَفَاعَةٌ مَنْفِيَّةٌ، وَشَفَاعَةٌ مُثْبَتَةٌ.

فَالشَّفَاعَةُ الْمَنْفِيَّةُ: مَا كَانَتْ تُطْلَبُ مِنْ غَيْرِ اللهِ فِيمَا لا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إلا اللهُ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

وَالشَّفَاعَةُ الْمُثْبَتَةُ: هِيَ الَّتِي تُطْلَبُ مِنَ اللهِ ، وَالشَّافِعُ مُكَرَّمٌ بِالشَّفَاعَةِ، وَالْمَشْفُوعُ لَهُ مَنْ رَضِيَ اللهُ قَوْلَهُ وَعَمِلَهُ بَعْدَ الإِذْنِ ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَن ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة:٢٥٥]

الشرح

فهذا فيه بيان من الشيخ رحمه الله تعالى لأنه في قوله أن هؤلاء سمعوا بالشفاعة وما عرفوا معناها وراحوا يطلبونها من هؤلاء بدون إذن الله عزّ وجل، بل طلبوها لمن هو مشرك بالله وهم يطلبونها ممن لا يملكها ويطلبونها لمن لا يستحقها، ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾[المدَّثر:٤٨]. فهؤلاء يجهلون معنى الشفاعة الحقّة والشفاعة الباطلة، فالشفاعة شفاعتان:

أ- شفاعة نفاها الله جلّ وعلا وهي الشفاعة بغير إذنه سبحانه وتعالى فلا يشفع أحد عند الله إلا بإذنه وأفضل الخلق وخاتم النبيّين محمد صلّى الله عليه وسلّم إذا أراد أن يشفع لأهل الموقف يوم القيامة يخرّ ساجداً بين يدي ربّه ويدعوه ويحمده ويُثني عليه وما يزال ساجداً حتى يُقال له ارفع رأسك واشفع تشفّع إلا بعد الإذن[9].

[9] البخاري- الفتح ٨ (٤٧١٢) . ومسلم (١٩٤)

ب- والشفاعة المُثْبَتَة هي التي تكون لأهل التوحيد فالمشرك لا تنفعه شفاعة والذي يقدم القرابين لأصحاب القبور وينذر لهم هذا مشرك شركا أكبر لا تنفعه شفاعة الشافعين يوم القيامة.

وبهذا يتبين أن الشفاعة المنفية هي التي تطلب بغير إذن الله أو تطلب لمشرك والشفاعة المثبتة هي التي تكون بعد إذن الله وتكون لأهل التوحيد.

الْقَاعِدَةُ الثَّالِثَةُ

أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ظَهَرَ عَلَى أُنَاسٍ مُتَفَرِّقِينَ فِي عِبَادَاتِهِمْ، مِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الْمَلَائِكَةَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الْأَنْبِيَاءَ وَالصَّالِحِينَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الْأَشْجَارَ وَالْأَحْجَارَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ، وَقَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَلَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَهُمْ؛

الشرح

هذه القاعدة فيها بيان المجتمع الذي بُعث فيه الرسول صلى الله عليه وسلم وذلك لبيان عبادتهم لغير الله جلّ وعلا وأنهم متفرقون في عبادتهم من جهة من يعبدونه، فذكر الشيخ رحمه الله جملة من الأصناف:

١) الذين يعبدون الملائكة.

٢) الذين يعبدون الأنبياء والصالحين.

٣) الذين يعبدون الأحجار والأشجار.

٤) الذين يعبدون الشمس والقمر.

كان موقف الرسول صلى الله عليه وسلم واحدا؛ وهذا الموقف هو أنه قاتلهم صلى الله عليه وسلم ولم يفرق بينهم وذلك أنهم متفقون من جهة من يعبدونه، وذلك أن جميع عبادتهم شرك بالله جلّ وعلا. وذلك بخلاف أصحابه صلى الله عليه وسلم فإنهم مجتمعون على شيء واحد وهو أنهم يعبدون الله جلّ وعلا. وعلى هذا الأساس سار صلى الله عليه وسلم في دعوته إلى الله جلّ وعلا يُحارب الشرك بجميع أنواعه سواء كان شركا أكبر أو كان شركا أصغر، وكذلك يُحارب المعاصي ويدعو الناس إلى عبادة الله وحده، وذلك أن الناس عندما يعبدون غير الله فهم يسيرون على أهوائهم وعلى دعايات المضللين من الخلق، ولهذا يقول الله جلّ وعلا: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا

فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٩﴾[الزُّمَر:٢٩] الذي يعبد الله وحده مثل المملوك الذي يخدم شخصا واحداً يرتاح معه، يعرف مقاصده ويعرف مصارفه، لكن المشرك مثل الذي له عِدّة مالكين لا يدري من يُرضي منهم، كل واحد له هوى وكل واحد له طلب، كل واحد له رغبة وكل واحد يريد أن يأتي عنده ولهذا قال سبحانه: ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ يعني يملكه عِدّة أشخاص لا يدري من يُرضي منهم. وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ مالكه شخص واحد هذا يرتاح معه. هذا مثل ضربه الله تعالى للمشرك وللموحد.

فالمشركون متفرقون في عبادتهم والنبي صلى الله عليه وسلم قاتلهم ولم يفرق بينهم وقاتل الوثنيين وقاتل اليهود والنصارى وقاتل المجوس، قاتل جميع المشركين قاتل الذين يعبدون الملائكة والذين يعبدون الأولياء والصالحين. فهذا فيه رد على الذين يقولون الذي يعبد الصنم ليس مثل الذي يعبد رجلا صالحاً وملَكاً من الملائكة لأن هؤلاء يعبدون أحجارا وأشجارا ويعبدون جمادات، أما الذي يعبد رجلا صالحا ووليا من أولياء الله فليس مثل الذي يعبد الأصنام، ويُريدون بذلك أن الذين يعبدون القبور في هذا الوقت يختلف حكمه عن الذي يعبد الأصنام فلا يكفرون الذين يعبدون الأموات ولا يعتبرون هذا شركاً ولا يجوز قتاله، فيُقال لهم: الرسول صلى الله عليه وسلم لم يفرّق بينهم بل اعتبرهم مشركين كلهم واستحل دماءهم وأموالهم ولم يفرق بينهم والذين يعبدون المسيح – والمسيح رسول الله – ومع هذا قاتلهم واليهود يعبدون عُزَيْراً وهو من أنبيائهم، قاتلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يفرق بينهم.

الأدلة التي ذكرها الشيخ رحمه الله لهذه القاعدة:

الدليل الأول: قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۝١٩٣﴾[البقرة:١٩٣]

هذه الآية اشتملت على ثلاثة أمور:

١. الأمر بقتال المشركين من غير فرق بينهم بالنسبة لما كانوا يعبدونه.
٢. "حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَة" يعني حتى يزول الشرك كله، سواء كان شركا أكبر أو كان شركا أصغر.
٣. أن يكون الدين لله وحده فلا يُوجد على وجه الأرض من يُعبد غيره.

الدليل الثاني: قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ۝٣٧﴾[فُصِّلَت:٣٧] هذا دليل على أن هناك من يسجد للشمس والقمر ولهذا نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها سداً للذريعة. ومن المعلوم أن من قواعد هذه الشريعة هو سدّ الذرائع فجميع الوسائل الموصلة إلى شرك أكبر أو كفر أكبر أو نفاق أكبر أو إلى معصية من المعاصي فإنّه يجب سدّها. لأنّ هناك من يسجد للشمس عند طلوعها ويسجد لها عند غروبها فنُهينا أن نصلي في هاذين الوقتين وإن كانت الصلاة لله، لكن لما كانت الصلاة مشابهة لفعل المشركين الذين يعبدون الشمس والقمر مُنع من ذلك سدّا للذريعة التي تُفضي إلى الشرك، والرسول صلى الله عليه وسلم جاء بالنهي عن الشرك وسدّ الذرائع المفضية إليه والدليل على منع ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: "لا يتحر أحدكم فيصلي عند طلوع الشمس و لا عند غروبها"[١٠].

[10] (صحيح) انظر حديث رقم: ٧٦٠٦ في صحيح الجامع.

الدليل الثالث: **قَوْلُهُ تَعَالَى:** ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ ﴿٨٠﴾﴾[آل عمران:٨٠]

هذا دليل دلّ على أن هناك من عبد الملائكة والنبيين وأن ذلك شرك. وكون الملائكة والنبيين مقربين عند الله جلّ وعلا هذا لا يمنع أن تكون عبادتهم شرك وعبّاد القبور اليوم يقولون: الذي يعبد الملائكة والذي يعبد النبيين والذي يعبد الصالحين ليس بكافر وهذا غير صحيح.

الدليل الرابع: **قَوْلُهُ تَعَالَى:** ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾﴾[المائدة:١١٦]

في هذه الآية بيان وُجود أناس كانوا يعبدون المسيح وأمّه، يعبدونهما من دون الله جلّ وعلا. ففي هذه الآية بيان الرد على من فرّق في ذلك من عبّاد القبور الذين يقولون إن الشرك هو: عبادة الأصنام فقط ولا يُسوى عندهم بين من عبد الأصنام وبين من عبد وليا أو رجلا صالحا ويُنكرون التسوية بين هؤلاء ويزعمون أن الشرك مقصور على عبادة الأصنام فقط، وهذا من المغالطة الواضحة، ذلك أن الله جلّ وعلا أنكر في القرآن على الجميع وأمر بقتال الجميع يعني بقتال العابدين لغير الله بصرف النظر عن معبوديهم وأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يُفرق بين عابد صنم وبين عابد مَلَك أو رجل صالح.

الدليل الخامس: **قَوْلُهُ تَعَالَى:** ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ ﴿٥٧﴾﴾[الإسراء:٥٧]

في هذه الآية بيان أن هناك من عَبَد الصالحين من البشر وقد نزلت هذه الآية فيمن يعبد المسيح وأمّه وعُزيرا، وأخبر سبحانه أن المسيح وأمّه مريم وعُزيراً كُلهم عباد لله جلّ وعلا يتقربون إلى

الله ويرجون رحمته ويخافون عذابه. فهم عباد محتاجون إلى الله مفتقرون إليه يدعونه ويتوسلون إليه بالطاعة وهو القرب منه سبحانه وتعالى، فإذا كانوا كذلك فكيف يُعبدون من دون الله.

الدليل السادس: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾[النجم:١٩-٢٠]

فقوله ﴿أَفَرَءَيْتُمُ﴾ هذا استفهام إنكار، أي: أخبروني.

واللات: بتخفيف التاء: اسم صنم في الطائف. وهو عبارة عن صخرة منقوشة عليها بيت مبني وعليه ستائر يضاهي الكعبة وحوله ساحة وعنده سدنة، كانوا يعبدون هذه الصخرة وهي **لثقيف** وما والاهم من القبائل يُفاخرون بها. وقُرئ "واللاتّ" بتشديد التاء : اسم فاعل من لتّ يلتّ وهو رجل صالح كان يلتّ السويق ويُطعمه للحُجاج فلمّا مات بنوا على قبره بيتا وأرخوا عليه الستائر وصاروا يعبدونه من دون الله عزّ وجلّ.

والعزى: شجرات من السلم في *وادي نخلة* بين مكّة والطائف، حولها بناء وستائر وعندها سدنة وفيها شياطين يكلمون الناس ويظنّ الجهّال أن هذا الذي يكلمهم هو نفس هذه الشجرة أو هذا البيت الذي بنوه مع أن الذين يتكلمون معهم هم الشياطين ليضلوهم عن سبيل الله. وكان هذا الصنم **لقريش** وأهل مكّة ومن حولهم و من حولهم.

ومناة: صخرة كبيرة في مكان يقع قريباً من جبل *قديد* بين مكة والمدينة، وكانت **لخزاعة** و**الأوس** و**الخزرج**، وكانوا يُحْرِمُون من عندها للحج ويعبدونها من دون الله جلّ وعلا.

فهذه الأصنام الثلاثة هي أكبر أصنام العرب، قال تعالى ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ وَمَنَوٰةَ﴾ هل أغنتكم شيئا؟ هل نفعتكم؟ هل نصرتكم؟ هل كانت تخلق وترزق وتُحيي وتُميت؟ ماذا وجدتهم فيها؟ هذا من باب الإنكار وتنبيه العقول على أن ترجع إلى رشدها فهذه إنما هي صخرات

وشجرات ليس فيها نفع ولا ضر، مخلوقة. ولما جاء الله بالإسلام وفتح رسول الله صلى الله عليه وسلم *مكّة* المشرفة أرسل *المُغيرة بن شُعبة* وأبا *سفيان بن حرب* إلى اللات في *الطائف* فهدماها بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأرسل *خالد بن الوليد* إلى العزى فهدمها وقطع الأشجار وقتل الجنية التي كانت فيها تخاطب الناس وتضلّهم ومحاها عن آخرها. وأرسل *عليّ بن أبي طالب* إلى مناة فهدمها ومحاها وما أنقذت نفسها فكيف تُنقذ أهلها وعبادها. ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ أين ذهبت هل نفعتكم؟ هل منعت نفسها من جنود الله وجيوش الموحدين؟ فهذا فيه دليل على أن هناك من يعبد الأشجار والأحجار بل إنّ هذه الأصنام الثلاثة كانت هي أكبر أصنامهم ومع هذا محاها الله من الوجود وما دافعت عنها ولا نفعت أهلها فقد غزاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقاتلهم ولم تنفعهم أصناهم، هذا فيه دليل على أنّ النفع والضر من الله جلّ وعلا ولهذا جاء في الحديث في وصية الرسول صلى الله عليه وسلم "واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك بشيء إلا قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف"[11]

[11] **صحيح**، المشكاة (٥٣٠٢)، ظلال الجنة (٣١٦ - ٣١٨)